الكاتب أكتب الكتاب، إلى غير ذلك من المبالغات التي تواضع الناس على أنها الاصل المقبول والواقع المعقول !

وكان حافظ يشكو من تدخل بعض المصريين فيما لا يعنيهم وانصرافهم عن شئونهم للاعتكاف على شئون غيرهم . وينعى على مصر اشتغالها كلها بالسياسة سواء فى ذلك صغيرها وكبيرها ، عالمها وجاهلها ، ذكيها وأبلهها ! وقد سمعته يقول إن انجلترا وهى سيدة الممالك تترك لعشرات من رجالها الاشتغال بادارة دفة سياستها . أما مصر فان بها أربعة عشر مليون سياسى ! وكانت له رحمه الله نظرات ثاقبة فى المواقف السياسية وفى المشتغلين بها ونبوءات تحقق منها الشىء الكثير .

وبالرغم من أن حافظاً قد تعرض لكثير من سخط الدهر وقسوة الزمن وشظف العيش وخشونته إلا أن شيئاً من ذلك لم يؤثر فى خلقه ولا فى رأيه فى غيره من الخلق بل ولا فى الزمن والعيش والحياة .

رحم الله حافظاً وعزّى عنه أسرة الأدب وألهمهم السداد والتوفيق فى القيام ببعض ما لهذا الأديب الفذ عليهم وعلى البلاد من حق ، وكفاء ما كان له فى الأدب المصرى الوطنى من أثر ؟

حسن الحكيم

حافظ واللغة الفصيحة

كنتُ وعدت الصديق العزيز محرر (أبولو) أن أكتب كلمة للعدد الخاص بذكرى حافظ ، وأخذت أسوّف ، ولى أعذار فى التسويف حتى كاد يونية ينصرم ، وعدت أفكر فى التحلل من ذلك الوعد ، فانى على سفر ، وفوق كاهلى واجبات لا بدّ من انجازها .

ولكن ذكرى حافظ كانت تهيجنى فى كل لحظة ممثّلة فى بيته الحزين :

مرضنا فما عادنا عائدٌ ولا قيل أينَ الفتى الالمعى

ومرّ بالبال أنى شُغلت عن شهود جنازته ، فمن المروءة ان لا أُشغل عن شهود ذكراه .

وأنا أقف فى موكب هذه الذكرى عندنقطة صغيرة : هى عمل حافظ فى انهاض اللغة الفصيحة .

١ — كان حافظ من المفتونين بأدب اللغة العامية وكان يحفظ كثيراً من المواويل والازجال ، وكان ينشد محفوظاته تلك فى حماسة وإعجاب ، ولكن اتصاله بالاستاذ الامام محمد عبده حوّله الى قوة طاغية فى مناصرة اللغة الفصيحة ،وصداقته للوزير المصلح احمدحشمت باشا دفعته الى التفكير فى رياضة تلامذة المدارس على فهم لغة القرآن ، فأنشأ قصيدته المشهورة على لسان اللغة العربية :

أنا البحر فى أحشائه الدر كامنٌ فهل ساءلوا الغوّاصَ عن صدفاتى

وأخذ يخلق المناسبات للسخرية من أقطاب الأدب الحديث الذين عجزوا عن وصف ما جدّ من المخترعات على حين استطاع البدوى ان يسبغ على ناقته ابلغ الصفات واشرف النعوت ، واليك قوله فى مقدمة ترجمة البؤساء :

« تباركت اسماؤك اللهمّ ! أيدعى البعير ، وهو ذلك المركب الخشن بهذه الاسماء التى تضيق عنها بطون الكتب وهذه مراكب البخار والكهرباء لانكاد نجد لأسمائها مرادفاً فى هذه اللغة ؟ فما عسى ان تكون حالنا بجانب ذلك العربى الذى يقول فى وصف عيشه :

الابيضان أبردا عظامى الماءُ والفتُّ بلا إدام

وهو فوق راحلته ظالع على قتب يكاد يدمى عجانه تحت شمس تكاد تأكل ظلها فى مفازة .

تمشى الرياحُ بها حيرى موولهةً حسرى تلوذ بأكناف الجلاميدِ

اذا أردته على ان يصف تلك الراحلة العجفاء ، وأردتنا على ان نصف ونحن نستطيب من صنوف الطعام ما يضيق به صدر الخوان ، ونتبوأ أريكة « الاوتمبيل » تحت ذلك الظل الظليل ، فى مخارف ضفاف النيل ، على فراش وثير ، ومتكأ من حرير ، بين نسيم عليل ، وماء سلسبيل ، ذلك المركب الذلول الذى لا تلحق به صافنات الخيول ، فوقفنا أمامك موقف الحائر ، لا نعرف له اسماً يدل على مسماه ، ولا مرادفاً فى اللغة يؤدى معناه ! فخذوا ايها القادرون على الاصلاح بيد اللغة ، وانظروا كم ادخل فيها آباؤكم من كلمة فارسية . وهذا كتاب الله بين ايديكم يأذن لكم بما ندعوكم اليه ، وهذا باب الاشتقاق وباب النحت لا يزالان بحمد الله مفتوحين لم

يصبهما ما أصاب باب الاجتهاد فادخلوا منهما آمنين » .

وخلاصة هذه الكلمة أن تخلف اللغة عن وصف المخترعات الحديثة ليس من عيوبها ، وانما العيب عيب الكسالى العاجزين الذين لم يخلقوا من الألفاظ والتعابير ما حمق البدوىّ الضالّ فى الصحراء . وسخرية حافظ التى قذف بها الأدباء منذ عشرين عاماً لا يزال لها مكان : فعندنا بحمد الله مئات من الأشباح الجميلة ترمى اللغة بالضعف والتخلف ، كأن اللغة تخلق نفسها خلقاً ثم تتقدم طائعة خاشعة لخدمة الأدباء سكان القهوات !

٢ — ومن اجمل ما قرأت لحافظ رأيه فى قوة الاصطلاح ، وهو رأى نشره فى مقدمة كتاب الاقتصاد الذى اشترك فى ترجمته مع الأستاذ الجليل خليل بك مطران . وهو يرى أن الاصطلاح ليس بأوهى قوة من النقل ولا هو بدونه فى مراتب الهيمنة على اللغات « فما من كلمة تنبت ولا من لفظة تذوى الا وللاصطلاح يد فى حظها من الموت أو الحياة » .

وكانت حياة حافظ نفسها دعاية لقوة الاصلاح ، وان كنا لاحظنا أنه كان يخالف بين قوله وفعله ، فكان فى مجالسه من أوسع الناس صدراً ، وأعرفهم بحرية الرأى ، فاذا نظم قصيدة أو انشأ رسالة تكلف وتحذلق واستوحى المعاجم واغلق الباب فى وجه الاصطلاح !

٣ — واهم خدمة قدمها حافظ فى حياته الى اللغة الفصيحة هو تمكنه من الأدب القديم ، فقد كان يشعرك بجودة محفوظه وتنوّعه ان العرب أفصح الناس وابلغ الناس ، وكان يتدفع فى انشاد الشعر القديم تدفع السيل ، ثم يطوف بحدائق الملح والفكاهات البدوية والحضرية ، فلا تنصرف الا وانت أشوق الى دراسة الأدب الفصيح الذى يمكّن مثل هذا المحدّث من ناصية اللباقة والظَّرف وحلاوة الحديث .

وبعد ، فهذا ما سمح به الخاطر المكدود ، ولنا عودة فى الذكريات المقبلة ، فلن يكون هذا آخر العهد بشاعر مصر والنيل

زكى مبارك